أثر السنة النبوية

في تشكيل عقيدة وثقافة الأمة الجزائرية

أ. صالح عسكر

كلية العلوم الإسلامية-جامعة باتنة1

الهاتف: 0675111742

البريد الإلكتروني:

salah.askar@univ-batna.dz

askarsalah@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر السنة النبوية في تشكيل عقيدة وثقافة الأمة الجزائرية

حين يتجه الناس لدراسة السنة النبوية والحديث الشريف وعلومه، يفكرون غالبا في الجانب العلمي المتعلق بالرواية والدراية، وبالعلماء والمحدثين الأعلام وجهابذة الجرح والتعديل و "جراحي" العلل وكاشفي دقائقها وغوامضها، وخبراء التصنيف والتبويب والتتبع والاستدراك والشروح والتعليق والاستخراج والاختصار والتنكيت والتأصيل وتقريب المصطلح ... ولكنهم –بسبب الإلف والعادة– قد غفلوا عن الجانب الأساس في السنة النبوية، وهو جانب الاتباع والاقتداء الذي يصبغ الفرد والأمة بصبغة المسلم المقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم والمستن بسنته في اعتقاده وسلوكه.

إن الاتباع والاقتداء والاستنان بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله يمثل الجانب المحوري في السنة النبوية، ففضلا عن أن الجانب الأكبر من المرويات الحديثية متعلق بالجانب العملي منها [ولا نقصد أفعال النبي صلى الله عليه وسلم التي نقلت فقط، وهو أمر أحسن الإمام البخاري التعبير عنه حين سمى كتابه "الجامع الصحيح المسند من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه"[1]]، فإن الأصل في السنة النبوية أن تنقل بالأفعال ويعمل بها، وأما من يروونها فهم فئة قليلة من المختصين في جانب عموم أفراد الأمة الذين يسارعون إلى العمل بها، وهو أمر تنبه إليه المالكية حين جعلوا عمل أهل المدينة أصلا من أصولهم المعتبرة في استنباط الأحكام، لأن منطق الاتباع يجعل اجتماع الجمع الكبير من الذين ينقلون عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الذين ينقلون عن الذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم من التابعين وأبنائهم يمثل رواية للسنة النبوية بالفعل والتواطئ والاتفاق من الجمع الغفير عليها كتعدد الأسانيد وتضافر الروايات.

إن ما يهمنا في هذه المسألة هو هذا الجانب العملي من السنة المتمثل في الاقتداء والاتباع، ولمناقشة عمل أهل المدينة بابه الخاص في علم الأصول، فإن هذه الورقة تهدف لإثارة هذا الجانب الاقتدائي والاستناني العملي من السنة

النبوية، والذي يتجاوز الثناء على علم من الأعلام أو الإشادة بمصنف من المصنفات، إلى البحث عن أثر السنة النبوية في صياغة وتشكيل الأمة الجزائرية في جانبها العقدي وفي بعدها الثقافي.

فعلى الرغم من أن الأمة الجزائرية قد أضحت منذ القرن الأول الهجري جزءا من الأمة ومن الجسد الإسلامي الكبير إلا أنها انفردت بميزات تحسب لها وهي لذلك جديرة بأن توضع في دائرة الضوء ويسلط مجهر البحث والتدقيق عليها.

من أبرز تجليات هذه الميزات اجتماع أغلب الجزائريين على عقيدة واحدة في الوقت الذي نجد طوائف عديدة ومللا كثيرة في أكثر البلاد التي فتحها الإسلام وأكثرها –إن لم يكن جميعها– كانت موجودة قبل الإسلام، وكذا اعتماد الأمة الجزائرية للغة القرآن وسيلة للتواصل بين مكوناتها واحتفائهم بها وبنبيها صلى الله عليه وسلم وصحابته في الوقت الذي ظلت أكثر البلاد الإسلامية أعجمية اللسان .

يدفعنا ذلك إلى التساؤل عن أثر السنة النبوية في تشكيل عقيدة الأمة الجزائرية وثقافتها؟ وذلك ما تهدف هذه الورقة إلى إثارة بعض جوانبه.

أثر السنة النبوية في تشكيل عقيدة الأمة الجزائرية:

حين نتحدث عن تأثير السنة النبوية على عقيدة شخص أو مجموعة من الناس فإننا نقصد أن هذا الشخص أو هذه الجماعة ماضية في اعتقادها على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في بيان نصوص القرآن الكريم وعموماتها، وفي موقفه عليه الصلاة والسلام من متشابهها ومحكمها، والذي عليه السواد الأعظم من الذين يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهم الذين اصطلح على تسميتهم بأهل السنة والجماعة.

وتسمية "أهل السنة والجماعة" نفسها أخذت من حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلامه وقد جمعت من حديثين منفصلين، أحدهما ورد في سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[ii] فهذا الحديث أخذ منه لفظ "أهل السنة" لأنهم المستنون بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وأما الحديث الثاني فقد ورد في سنن أبي داود عن معاوية رضي الله عنه قال:"ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا، فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة ... وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب ... بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله"[iii]. وقد تضمن الحديث النص

على لفظ الجماعة، قال في عون المعبود:"أي أهل القرآن والحديث والفقه والعلم الذين اجتمعوا على اتباع آثاره صلى الله عليه وسلم في جميع الأحوال كلها ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير ولم يبدلوا بالآراء الفاسدة"[iv].

بناء على ما سبق، فإن

هذه العقيدة المبنية على الاستنان بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولزومها والدفاع عنها والولاء بسببها والبراء انطلاقا منها، ظلت هي الطابع الذي تطبعت به الأمة الجزائرية جماعة وأفرادا، بل كان ذلك شأن جميع المسلمين في المغرب الإسلامي مع حمية زائدة لها عند الجزائريين ودفعهم بجحافل متتابعة من الشهداء في سبيلها عبر العصور المختلفة وجهاد مستمر ومقاومة للكثير من الهجمات تحت لوائها.

ويقدر عدد المسلمين في الجزائر بما يقارب ثمانية إلى تسعة وتسعين في المائة من عموم الجزائريين، وعامتهم على عقيدة أهل السنة والجماعة على الرغم من المحاولات القديمة والمتجددة لإحداث اختراق في هذا النسيج المتجانس الذي يمثل عامل قوة ووحدة وجمع تكسرت عليه كل محاولات الاختراق الخارجي وآخرها الاحتلال الفرنسي الذي استمر قرابة مائة وثلاثين سنة، ومع ذلك ظل كتلة سرطانية غريبة لم يقبلها الجسد الجزائري ولم يرض إلا بالتخلص منها بكل الطرق والوسائل وبجراحات مؤلمة عسيرة.[v]

ويحسب لأهل المغرب الإسلامي ومنهم الجزائريون أنهم لم يرفضوا الإسلام وعقيدته التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه [أي المأخوذة من السنة] ولم يرتدوا عنه أو يبغوا عنه حولا أو يستبدلوا به بديلا بعد أن عرفوا هذه العقيدة فاعتنقوها، ورغم أن الفتح الإسلامي لبلادهم كان أطول فتح زمانا مقارنة ببلاد الإسلام الأخرى[vi] ولقي حربا ضروسا، إلا أنهم ما حاربوا الإسلام حقيقة، ولكن حاربوا في البداية ما كانوا يظنون أنه احتلال آخر بشبه الاحتلال الذي عرفوه من قبل، "على أن التاريخ يشهد أن أهل المغرب الإسلامي لم يرفضوا الإسلام أبدا بعد أن عرفوه، وقد كانت مقاومتهم له في المرحلة الأولى مقاومة من كانوا يعتقدون أن الفتح الإسلامي نسخة أخرى من الاحتلال البيزنطي والفينيقي والوندالي"[vii].

كانت مقاومة أهل المغرب الإسلامي للفتح الإسلامي في بدايتها مقاومة للفاتحين لا للعقيدة التي يحملونها والتي كان أهل البلاد يجهلونها، ثم تحول الأمر إلى دفاع عن المصالح المكتسبة، وهنا انقسموا إلى فئة كانت لها مصالح ترى في الإسلام تهديدا لها، وفئة تجاهد مع الفاتحين في سبيل هذه العقيدة، و "يشير العديد من المؤرخين إلى أن الأمازيغ البتر[viii] قد ساهموا بحماسة في نشر الإسلام سواء أكان ذلك عبر تدعيم الجيوش الإسلامية بالمقاتلين والمشاركة في فتح بعض الأقطار كالأندلس على يد طارق بن زياد أو عبر إثراء التعليم الديني وتعميمه..

بيد أنه تجدر الإشارة إلى أن انتفاضة كل من كسيلة والكاهنة لم تتم باسم جميع الأمازيغ. فكما يذهب إليه الكثير من المؤرخين فإن القبائل التي عبرت عن رفضها لمجيء العرب المسلمين هي تلك التي كانت تقطن المدن أو كما تسمى البرانيس، حيث كان هؤلاء أكثر ميلا لليونانيين وللبزانطيين، وكان رفضهم التخلي عن المسيحية في حقيقة الأمر تعبيرا عن تخوف من فقدان مركزهم كقبائل مهيمنة.

أما القبائل الأخرى أي البتر فقد كانت السباقة لاعتناق الإسلام وقد ساهمت تحت لواء قائدها ابن معاد، في المعارك التي شنها عقبة ابن نافع وأبو المهاجر بن دينار ضد كسيلة والكاهنة"[ix].

وحتى في الفترات التي ظهرت فيها في الجزائر خصوصا وفي بلاد المغرب الإسلامي عموما حركات ومذاهب خارجة عن هذه العقيدة كدولة العبيديين الباطنية فقد كانت في حقيقتها نوعا من التمرد على السلطة المركزية للأمراء وتعبيرا عما كان يراه أهل هذه البلاد الثائرون على الظلم والعبودية تاريخيا جورا للحكام، وانخداعهم بظاهر تلك المذاهب التي لم تكن تعلن خروجها الظاهر عن العقيدة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم بل كانت تدعي أنها تمثل الإسلام الصحيح وتدافع عنه وتدعو إلى إقامته، وما أسهل أن يستجيب الإنسان لمن يدعوه إلى انحراف يغلفه بغلاف الإسلام والحمية للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته وهو في الوقت نفسه يمكنه من الثورة على من يراهم ظالمين له كما ظلموا من قبل –على ما قيل له– النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته، وسيكون الأمر مختلفا تماما لو أن هذه الدعوات خرجت بوجه سافر تدعوا إلى التمرد على الإسلام وعقيدته والردة عنه.

ويؤكد ذلك نبذ المسلمين في الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي عموما لهذه العقائد واندثارها اندثارا كاملا بعد إسفارها عن وجهها وظهور بواطنها مع بقائها إلى اليوم في أغلب بلاد المسلمين ومنها جزيرة العرب.

هذا وقد تفاعلت هذه العقيدة مع طبيعة الجزائريين فأنشأت ثقافة خاصة ما زالت تتجلى فيها سنة النبي صلى الله عليه وسلم والحرص على الوصول إلى أبعد قدر في الاقتداء به وتمثل أفعاله وتشرب وصاياه وأقواله وتمثيلها في الحياة ونقلها من الآباء إلى الأبناء.

أثر السنة النبوية في تشكيل ثقافة الأمة الجزائرية:

من أبرز تجليات تأثير السنة النبوية في صياغة ثقافة الأمة الجزائرية أنها كما جمعت أفرادها على عقيدة واحدة، فقد استطاعت أن تقضي على الفروق والاختلافات بينهم وتنشئ منهم أمة متماسكة متجانسة، وإن الذي ينظر إلى المسألة نظرة سطحية قد يبدو له ذلك أمرا هينا يسيرا، ولكن من تأمل خطط الأعداء الغزاة –وليس آخرهم أبناء الكاردينال لافيجري–، يدرك أنهم سعوا دائما لنشر الفوارق بين مكونات المجتمع الواحد ثم تضخيمها والنفخ فيها

لتفجير الأمة من الداخل واستخدام طوائف منها ضد الأخرى، واتخاذ أعوان وخدم من هذا الشتات. وهي خطة قديمة متجددة باستمرار.

في المقابل كانت تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصاياه تهدم كل هذه الخطط وهي توجه المسلمين فتلقى قلوبا مشرعة منشرحة لها من أبناء هذه الأمة التي تتعرض للهجمات ومحاولة المسخ والتبديل، فتشد رباطها وتقوي وحدتها وأواصر الأخوة فيها، ابتداء من بعض التفاصيل التي قد تبدو بسيطة وهينة من نحو إزالة كل أسباب الضغينة بالنهي عن النجش أو البيع على البيع والخطبة على الخطبة ... ومرورا ببناء العلاقات الاجتماعية والأسرية على الخلق والدين ونبذ مظاهر العصبية العرقية الجاهلية المنتنة، وحفظ حقوق الجوار والإحسان إلى الضعيف والفقير واليتيم وذي الحاجة، ورعاية حرمة الأعراض والدماء والأموال... وانتهاء بحل النزاعات بالصلح والرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم (أي إلى الكتاب والسنة)، ومن هنا برز الدور البارز والمستمر للفقهاء والأئمة وجماعات الإصلاح وحل النزاعات التى تستغرق سنوات طويلة أمام المحاكم، وإزالة فتيل الخلافات والثارات الخطيرة بين العروش والقبائل في مسائل كبيرة تتعلق بالدماء والأموال والأعراض...[x]

هذا ويحسب للأمة الجزائرية وأهل المغرب الإسلامي عموما هذه المحبة والمنزلة الخاصة لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم –على ساكنها أفضل الصلاة والسلام– التي تعبر عن ارتباط خاص بلبنة الإسلام الأولى ممثلة في النبي صلى الله عليه وسلم ومن التف حوله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أهل المعين الصافي أيام غربة الإسلام بين الناس، كما ظلت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيدة عن كل نزاعات السياسة والسلطة وتجاذبات الحكم بفضل الخليفة عثمان رضي الله عنه ذي النورين الذي ضحى بنفسه ولم يرض أن يجعل أمر المسلمين في يد كل من يحمل سيفا فيخلع عنه بيعة المسلمين، ولا أن يجعل تراب المدينة ساحة تسيل فيها دماء المسلمين في قتال بينهم، فكانت قلب الإسلام الذي يأرز الإيمان إليه كما تأرز الحية إلى جحرها.[xi]

تجلى هذا الارتباط في انتشار فقه أهل المدينة وقراءة أهل المدينة واشتغال الأمة الجزائرية بهما تعلما وفهما ونقلا وتدريسا، ومهما كانت الأسباب التي تذكر في ما ساهم في انتشار مذهب الإمام مالك في بلاد المغرب الإسلامي، فالخبير بأهل هذه البلاد يعرف فيهم هذا الحرص على الأخذ من العين مباشرة ممثلة في النبي صلى الله عليه وسلم وسنته أو من أقرب جزء من النهر إليها.

على أن السنة النبوية وما أخذ منها من فقه وآداب وأحكام شرعية، قد تجاوزت عند أهل هذه البلاد مرحلة الحفظ والتعلم وتحولت إلى مكون محوري للثقافة الجزائرية –بل إلى المكون الأول والأساس للثقافة الجزائرية– فداخلت عادات الجزائريين وطريقة تفكيرهم وأسلوب حياتهم.[xii] وفي غمرة تعرض الأمة لحملات التجهيل والتجويع والإفقار والمسخ

ومحاولة تغيير الهوية في مرحلة الاحتلال الفرنسي استطاع الجزائريون أن يحولوا تعاليم الإسلام عموما والسنة النبوية خصوصا إلى جزء من الثقافة الشعبية عبر تعريف أنفسهم بالمسلمين في مقابل الفرنسيين (النصارى) واليهود، وتفريعا على ذلك فقد كانت لهم ثقافتهم الخاصة في شعائرهم وعباداتهم وأعيادهم، وفي علاقاتهم الاجتماعية والأسرية وفي زواجهم وأنسابهم وطلاقهم وميراثهم وقسمة تركاتهم...، وفي معاملاتهم المالية من بيع وتجارة وإجارة وتوثيق للعقود والديون والحقوق...، وفي عاداتهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم ... بل إنهم استطاعوا أن ينشئوا ما يشبه القضاء والمحاكم الموازية للقضاء الرسمي تحت سلطة الاحتلال الفرنسي من خلال جماعات الإصلاح التي كان يشرف عليها الأئمة والفقهاء والعلماء وشيوخ "العروش" والقبائل وينقاد عموم الجزائريين لها طواعية من غير أن تملك سلطة الضبط والتنفيذ القسري للأحكام بالقوة العمومية. وقد كانت عموم هذه الأمور والآداب والأحكام الشرعية التي أضحت ثقافة شعبية جزائرية مستمدة في عمومها من أحكام فصلتها السنة النبوية وإن جهل عموم الناس مأخذها وسندها في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

وقد تجاوزت العبقرية الجزائرية تحويل الأحكام المأخوذة من السنة النبوية لثقافة شعبية إلى نوع من التعليم الذي يشترك فيه عموم الجزائريين حتى الأميون منهم، مستفيدين في ذلك من المنهاج النبوي الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يمثل المعلم فيه، لا في القسم والمدرج ولكن في المسجد والبيت والسوق وفي الإقامة والسفر ولعموم الناس لا لفئة منهم دون أخرى. وهكذا وجدنا العجوز الأمية كبيرة السن في المجتمع الجزائري تعرف مثلا أحكام الرضاع والمحرمات من النساء وأحكام الطلاق والعدة ونحوها... وهي أمور فقهية وقانونية فصلتها السنة النبوية، وإننا لن نستطيع أن ندرك حقيقة المسألة إلا إذا نظرنا إلى شبيهتها في منظومة أخرى، وأنت لو عالجت الأمر في المجتمع الغربي مثلا وجدت أن المحامي المختص بعد طول دراسة واختبار، يحتاج لأن يرجع للنصوص القانونية ويكتب مذكرات كتابية إذا ما عرض عليه مثل هذا الأمر. وقل مثل ذلك في التاجر الذي يعرف أحكام البيع والتجارة، والمضحي الذي يميز الميتة من المذكاة والمجزئة من المعيبة ونحوه...

ولئن كانت السنة في مبدئها تنقل في أفعال المسلمين في مقابل قلة من الناس ترويها، فإن المجتمع الجزائري استطاع أن يحافظ في أفعاله على كثير من الأمور التي مصدرها السنة النبوية، ومن أمثلة ذلك أن أهل مدينتنا "باتنة" يطبقون طوعا أو كرها سنة مهجورة في أغلب بلاد المسلمين، فتراهم إذا مرت بهم جنازة أوقفوا سياراتهم ومركباتهم وترجلوا منها فضلا عمن كان منهم قاعدا أو ماشيا فوقفوا جميعا لا يتملص من ذلك أحد. وأصل ذلك سنة النبي صلى الله عليه وسلم –علمها من علمها وجهلها من جهلها–، وهي ما روى مسلم بسنده عن ابن أبي ليلى؛ أن قيس بن سعد وسهل بن حنيف كانا بالقادسية. فمرت بهما جنازة. فقاما. فقيل لهما: إنها من أهل الأرض. فقالا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام. فقيل: إنه يهودي. فقال "أليست نفسا"[xiii]. وعن عامر بن ربيعة،

عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال:"إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشيا معها، فليقم حتى تخلفه، أو توضع من قبل أن تخلفه"[xiv].

بل إن الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي عموما، ولبعدها عن مركز الخلافة ومهبط الوحي، مثلت عبر التاريخ ثغرا عظيما من ثغور الإسلام، يواجه أول هجمات الصليبيين القادمين عبر البحر، ولذلك كانت رباطا يرابط عليه المجاهدون والعلماء والعباد، ولكن لحكمة ما، عرف الجزائريون خصوصا، بإحياء سنة الجهاد في سبيل الله حتى كانوا أحق به وأهله، وما منهم أسرة إلا تحصي عشرات من الشهداء يرث بعضهم عن بعض تركة الانخراط في ذروة سنام الإسلام كما سمته السنة –اي الجهاد في سبيل الله–[xv] والسعي لمنازل الشهداء الرفيعة عند الله.

وفضلا عن النقل العملي للسنة النبوية وتجسيدها في العلاقات الاجتماعية والعادات ونحوها، فإن العبقرية الجزائرية قد استطاعت أن تنتج نوعا من التعليم الطريف والبسيط الذي لا يستثني الأمي والمرأة العجوز والشيخ الكبير فضلا عن الطفل الصغير أو المتعلم الواعي، من خلال تحويل بعض نصوص السنة النبوية إلى أمثال شعبية وعبارات عامية يسهل حفظها ونقلها على كل فئات الناس، وتجد هذه العبارات المختصرة سهلة الحفظ والتداول تدمج أكثر من حديث، ومن أمثلة ذلك الجملة التي يرددها الجزائريون بلهجاتهم المختلفة رغم أن كلماتها عربية فصيحة، فيقولون:"العين حق والطيرة باطل". وأصل هذه العبارة حديثان للنبي صلى الله عليه وسلم اجتزأت العبارة من الأول منهما "العين حق"، وهو نص حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"العين حق. ونهى عن الوشم"[xvi].

ورواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي نصه زيادة، فأخرج عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "العين حق. ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا"[xvii] .

وأما الجزء الثاني من العبارة فهو تلخيص لجملة من الأحاديث التي أبطل فيها النبي صلى الله عليه وسلم ما كان عليه أهل الجاهلية من التطير منها ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث:[xviii] في المرأة، والدار، والدابة"[xix]، وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"لا طيرة، وخيرها الفأل". قالوا: وما الفأل؟ قال:"الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"[xx].

وقد تلخص العبارة الصغيرة معنا ورد في أحاديث طويلة ومتعددة، ومن أشهر الأمثلة على ذلك جملة يرددها عموم الجزائريين فيقولون:"إذا تخلطت الأديان احكم دينك" يقصدون:"إذا اختلطت الأفكار والمعتقدات فتمسك بما تعرف من دينك"...

هذه العبارة على اختصارها تلخص مضمون مجموعة من الأحاديث التي تضمنت وصية النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين الذين يريدون الثبات على العهد بعده عليه الصلاة والسلام خاصة عند ظهور الفتن، منها حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وهو ما رواه الترمذي في سننه عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»[xxi] .

فإخباره صلى الله عليه وسلم بظهور الاختلاف بعده، ووصيته باتباع سنته عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، وتحذيره من البدع والمحدثات والضلالات الخارجة عن تلك السنة توافق ما تحمله العبارة السالفة.

ومن ذلك أيضا ما روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال:"نعم". قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال:"نعم، وفيه دخن". قلت وما دخنه؟ قال:"قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر". قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال:"نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها". قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال:"هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا". قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال:"فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"[xxii].

والأحاديث التي تتضمن مثل هذه الوصايا كثيرة، والمثالان يوضحان كيف جمعت هذه العبارة المختصرة خلاصتها في قالب عامي سهل ييسر حفظها وفهمها ووعيها على عوام الناس وبسطائهم فضلا عن الخواص، كالذي يضع كلمات مفتاحية معدودة يستدعي بها زخما كبيرا من المعاني، وهو نموذج لهذه الثقافة الشعبية التي أدمجت سنة النبي صلى الله عليه وسلم ووصاياه في أمثالها وعباراتها التي يتداولها أفرادها كنوع من أشكال المقاومة لمحاولات المسخ والسلخ من الهوية والتغريب وطمس معالم الشخصية المتمسكة بالعقيدة والدين والقرآن والسنة.

الخاتمة:

وختاما هذه حوصلة لأهم النقاط والنتائج التي طرحتها هذه الورقات.

1-يمثل الاتباع والاقتداء والاستنان بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله الجانب المحوري في السنة النبوية، ففضلا عن أن الجانب الأكبر من المرويات الحديثية متعلق بالجانب العملي منها، فإن الأصل في السنة النبوية أن تنقل بالأفعال ويعمل بها، وأما من يروونها فهم فئة قليلة من المختصين في جانب عموم أفراد الأمة الذين يسارعون إلى العمل بها.

2-على الرغم من أن الأمة الجزائرية قد أضحت منذ القرن الأول الهجري جزءا من الأمة ومن الجسد الإسلامي الكبير إلا أنها انفردت بميزات تحسب لها وهي لذلك جديرة بأن توضع في دائرة الضوء ويسلط مجهر البحث والتدقيق عليها. ومن أبرز تجليات هذه الميزات اجتماع أغلب الجزائريين على عقيدة واحدة في الوقت الذي نجد طوائف عديدة ومللا كثيرة في أكثر البلاد التي فتحها الإسلام وأكثرها -إن لم يكن جميعها- كانت موجودة قبل الإسلام، وكذا اعتماد الأمة الجزائرية للغة القرآن وسيلة للتواصل بين مكوناتها واحتفائهم بها وبنبيها صلى الله عليه وسلم وصحابته في الوقت الذي ظلت أكثر البلاد الإسلامية أعجمية اللسان .

3-نقصد بتأثير السنة النبوية على عقيدة شخص أو مجموعة من الناس أن هذا الشخص أو هذه الجماعة ماضية في اعتقادها على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في بيان نصوص القرآن الكريم وعموماتها، وفي موقفه عليه الصلاة والسلام من متشابهها ومحكمها، والذي عليه السواد الأعظم من الذين يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وهم الذين اصطلح على تسميتهم بأهل السنة والجماعة. وتسمية "أهل السنة والجماعة" نفسها أخذت من حديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلامه.

4-هذه العقيدة المبنية على الاستنان بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولزومها والدفاع عنها والولاء بسببها والبراء انطلاقا منها، ظلت هي الطابع الذي تطبعت به الأمة الجزائرية جماعة وأفرادا، بل كان ذلك شأن جميع المسلمين في المغرب الإسلامي مع حمية زائدة لها عند الجزائريين ودفعهم بجحافل متتابعة من الشهداء في سبيلها عبر العصور المختلفة وجهاد مستمر ومقاومة للكثير من الهجمات تحت لوائها.

5-تفاعلت هذه العقيدة مع طبيعة الجزائريين فأنشأت ثقافة خاصة ما زالت تتجلى فيها سنة النبي صلى الله عليه وسلم والحرص على الوصول إلى أبعد قدر في الاقتداء به وتمثل أفعاله وتشرب وصاياه وأقواله وتمثيلها في الحياة ونقلها من الآباء إلى الأبناء.

6-من أبرز تجليات تأثير السنة النبوية في صياغة ثقافة الأمة الجزائرية أنها كما جمعت أفرادها على عقيدة واحدة، فقد استطاعت أن تقضي على الفروق والاختلافات بينهم وتنشئ منهم أمة متماسكة متجانسة.

7-يحسب للأمة الجزائرية وأهل المغرب الإسلامي عموما هذه المحبة والمنزلة الخاصة لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- التي تعبر عن ارتباط خاص بلبنة الإسلام الأولى ممثلة في النبي صلى الله عليه وسلم ومن التف حوله من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أهل المعين الصافي أيام غربة الإسلام بين الناس.

-8تجلى هذا الارتباط في انتشار فقه أهل المدينة وقراءة أهل المدينة واشتغال الأمة الجزائرية بهما تعلما وفهما ونقلا وتدريسا.

9-السنة النبوية وما أخذ منها من فقه وآداب وأحكام شرعية، تجاوزت عند أهل هذه البلاد مرحلة الحفظ والتعلم وتحولت إلى مكون محوري للثقافة الجزائرية -بل إلى المكون الأول والأساس للثقافة الجزائرية- فداخلت عادات الجزائريين وطريقة تفكيرهم وأسلوب حياتهم.

10-تجاوزت العبقرية الجزائرية تحويل الأحكام المأخوذة من السنة النبوية لثقافة شعبية إلى نوع من التعليم الذي يشترك فيه عموم الجزائريين حتى الأميون منهم.

11-لئن كانت السنة في مبدئها تنقل في أفعال المسلمين في مقابل قلة من الناس ترويها، فإن المجتمع الجزائري استطاع أن يحافظ في أفعاله على كثير من الأمور التي مصدرها السنة النبوية

12-مثلت الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي عموما عبر التاريخ، ولبعدها عن مركز الخلافة ومهبط الوحي، ثغرا عظيما من ثغور الإسلام، يواجه أول هجمات الصليبيين القادمين عبر البحر، ولذلك كانت رباطا يرابط عليه المجاهدون والعلماء والعباد، ولكن لحكمة ما، عرف الجزائريون خصوصا، بإحياء سنة الجهاد في سبيل الله حتى كانوا أحق به وأهله.

-13بالإضافة إلى النقل العملي للسنة النبوية وتجسيدها في العلاقات الاجتماعية والعادات ونحوها، فإن العبقرية الجزائرية قد استطاعت أن تنتج نوعا من التعليم الطريف والبسيط الذي لا يستثني الأمي والمرأة العجوز والشيخ الكبير فضلا عن الطفل الصغير أو المتعلم الواعي، من خلال تحويل بعض نصوص السنة النبوية إلى أمثال شعبية وعبارات عامية يسهل حفظها ونقلها على كل فئات الناس، وتجد هذه العبارات المختصرة سهلة الحفظ والتداول تدمج أكثر من حديث.

[i] سنن النبي صلى الله عليه وسلم: والسنة في اللغة هي الطريقة المتبعة، هذا هو المعنى القرآني المعروف، وقد وظفها البخاري –رحمه الله– في كتابه لا بالمعنى المصطلحي الذي ذكره علماء الحديث ولكن بمعنى قريب من المعنى اللغوي الذي تكون فيه السنن قسيمة للأقوال، وذلك أنه لما ذكر "أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم" والأحاديث أقوال، والقول يحمل الدلالة الصريحة على مراد القائل إما صراحة وإما بواسطة القرائن؛ فيدل الأمر أو الترغيب على طلب الفعل مثلا، كما يدل النهي أو الترهيب على طلب الترك، والقرينة المقترنة بالأمر قد تصرفه إلى الوجوب أو الاستحباب كما أن القرينة المقترنة بالنهي قد تصرفه إما إلى التحريم أو الكراهة... لما ذكر الأقوال ثنى بذكر السنن للدلالة بها على الأفعال وفي ذلك معنى لطيف: وهو أنه لما كانت الأقوال تدل بمعناها وفحواها على طلب الفعل فإن أفعال النبي صلى الله عليه وسلم تدل لمجرد تعلقها به وصدورها عنه عليه الصلاة والسلام على طلب الفعل والأمر بالاتباع والموافقة، ولذلك فأصدق وصف توصف به ليس وصف "الأفعال" ولكنه وصف "السنن" الذي أطلقه الإمام البخاري.

وأضاف إليها "أيامه" أي: أيام النبي صلى الله عليه وسلم: ولئن كان المحدثون حين وجدوا تعريف الأصوليين للسنة بأنها "ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير" قاصرا عن الإحاطة بتفاصيل السنة فأضافوا إليه "الصفة الخَلقية والخُلقية" فإن الإمام البخاري قد تنبه إلى ما هو أبعد من ذلك، فبعض السنة كجزء من أخبار أبواب المغازي مثلا ليس لها ارتباط مباشر بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يصدق عليها وصف الأقوال ولا وصف السنن بمعنى الأفعال ولا وصف الصفة الخلقية أو الخلقية أيضا، ومع ذلك فجميع أهل الحديث يدرجونها ضمن كتبهم ويتناقلونها ويروونها، فكان تعريفهم قاصرا عن الدلالة عليها مع اندراجها بالاتفاق ضمن السنة، ولذلك كان الإمام البخاري في توظيفه لعبارة "أيامه" أي: أيام النبي صلى الله عليه وسلم يأتي بالتعريف الصحيح لموضوع السنة من غير تكلف وبأشد الألفاظ اختصارا وحسنا. انظر بحث "منهج الحديث الموضوعي من خلال صحيح البخاري" لكاتب المقال ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر "الحديث النبوي وفلسفته وعلومه" كيرلا–الهند/فيفري 2012

[ii] سنن الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة 26/5 ح6241، قال الترمذي:«هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه» . وفي إسناده عبد الله بن زياد الإفريقي، قال ابن عبد البر: وعبد الله الإفريقي ثقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعفه آخرون. وقال المباركفوري:" قوله (هذا حديث حسن غريب) في سنده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف فتحسين الترمذي له لاعتضاده بأحاديث الباب وحديث عبد الله بن عمرو هذا أخرجه أيضا الحاكم وفيه ما أنا عليه اليوم وأصحابي " تحفة الأحوذي 334/7.

[iii] سنن أبي داود، كتاب السنة 324/4 ح4597

[iv] شرف الحق العظيم آبادي، عون المعبود 223/12

[v]

[vi] استغرق الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا نحو سبعين سنة بينما استغرق فتح كل من مصر والأندلس نحو ثلاث سنوات لكل واحدة منهما ونحوا من أربع سنوات للعراق وسبع سنوات لكل من فلسطين وسوريا.

[vii] إدريس شريف، التفاعل بين الإسلام والأمازيغية في الجزائر –منشور على موقع الجزيرة نت https://www-aljazeera-net.cdn.ampproject.org/v/s/www.aljazeera.net/amp/specialfiles/2016/2/7

[viii] يتفرع الأمازيغ وهم السكان الأصليون شمال إفريقيا إلى فئتين: البرانيس والبتر. أما البتر ومن أشهر قبائل البتر نذكر الزناتة، والبرغواطة، والهوارة، واللواتة والنفوسة... فقد كانوا يقطنون الجبال والبوادي وبحكم صعوبة الحياة في هذه المناطق فإنهم كانوا كثيري الترحال والتنقل. أما سكان السهول الساحلية والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة، فهم البرانيس وهم سكان الحضر وكانوا شديدي التمسك بالديانة المسيحية، ويطلق عليهم الرومان اسم الموريطانيين. انظر على سبيل المثال تاريخ زواوة لأبي يعلى الزواوي ص92 وما بعدها، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث 98/1 وما بعدها في القديم والحديث

[ix] التفاعل بين الأمازيغية والإسلام في الجزائر (مرجع سابق).

[x] من ذلك مثلا ما روى مسلم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تحاسدوا. ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض. وكونوا، عباد الله! إخوانا. المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ههنا" ويشير إلى صدره ثلاث مرات "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه". صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله 1986/4ح2564. وهذه الأمور كلها ورد الأمر بحسنها والنهي عن سيئها في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولو مثلنا لها بنص أو نصين لكان حجم هذا البحث أضعاف ما هو مسموح به، لذلك اقصرنا تلى الإشارة إلى عناوينها الكبرى وكثير من أحاديثها مشهورة ومعروفة.

[xi] نص حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها"، صحيح البخاري، كتاب العمرة، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة 633/2 ح664،

ومعنى "يأرز": ينضم ويجتمع.

[xii] تعرف الثقافة بأنها ما يُنسب إلى مجموعات البشر، من آثارٍ، وقيمٍ، وعادات، وأفكار، تُمثل أساس وجودهم الاجتماعي، وتميز حياتهم في المجتمع.

[xiii] صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة 661/2 ح81

[xiv] نفسه

[xv] في حديث طويل رواه الترمذي عن معاذ بن جبل، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه »؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة 11/5، ح2616

[xvi] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: العين حق 2167/5 ح5408.

[xvii] صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى 1718/4 ح2185.

[xviii] صدر الحديث، وعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تنفي أن يراد حقيقة الشؤم، وقد أجاب العلماء عن ذلك بإجابات منها أن المراد، إن كان خلق الله الشؤم في شيء مما جرى من بعض العادة فإنما يخلقه في هذه الأشياء... انظر ابن حجر، فتح الباري 61/6

. وقد ورد هذا المعنى في ما رويا عن ابن عمر قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس).عن ابن عمر قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس). صحيح البخاري 1959/5 ح4806، ولفظ مسلم:"عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال "إن يكن من الشؤم شيء حق، ففي الفرس والمرأة والدار". 1747/7 ح2225

[xix] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب التطير 2171/5 ح5421.

[xx] نفسه ح5422، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، ويكون فيه من الشؤم 1745/4 ح 2223

[xxi] سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع 44/5 ح2676 قال الترمذي:"هذا حديث حسن صحيح". وأخرجه أبو داود في باب لزوم السنة بلفظ: فقال العرباض : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.» 329/4 ح4607.

[xxii] صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام 1319/3-1320 ح3410،وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة 1475/3 ح 1847.